رحلةٌ في بلاد المكسيك

نقتضب النبذة الآتية من كتابٍ مطوّل بعث بهِ الينا صديقٌ لنا من المهاجرين الى الاقطار الاميركية وقد مرّ في اراضي المكسيك وشاهد مافيها من الغرائب فما جاء في كتابهِ المذكور قال

. . . وبعد خروجنا من اپيساغو كان القطار يقطع بنا سهولاً فسيحة قد انبسط فوقها العشب البرّي وساد عليها سكون الموت . وكانت تبدو لنا احياناً من وراء الافق او من فوق قنن الجبال صورة كنيسة او قبة جرس بيضاء تحيط بها الاشجار كأنها وكنة طائر او صومعة ناسك وحولها فضاءٌ لا نهاية لهُ يمثل للناظر انهُ سائرٌ في طريق الآخرة او انتقل الى اوائل العصور الغابرة

وبعد ان جزنا مسافاتٍ طويلة في هذا المشهد الموحش بلغنا مدينةً اسمها پُوبْلا وكانت السبع الطباق تدوي بصدى الاجراس المحزنة واستمرّ القرع ساعاتٍ وهو يتجدد كلما حسبناهُ انتهى فقلنا لعلّ الفقيد من اشراف المكسيك الذين لا يموت مثلهم الا نادراً . . . ولكن مضى على ذلك ايامٌ بعد ان القينا بها العصا والاجراس لا تزداد الا هراشاً ثم قيض الله لنا من انار بصائرنا فاعلمنا ان پوبْلا هذه مدينة الملائكة وتسمى ايضاً مدينة الكنائس لكثرة معابدها . وللكنيسة الكبيرة وحدها ساعةٌ دقاقة و ١٩ جرساً في قبة واحدة واكثر هذه الاجراس بطول قامة الانسان وهي مختلفة الاصوات وكلما عبر ربع ساعة يأخذون في قرعها على التوالي ايذاناً بانقضاء ربع الساعة

فتارةً يكون القرع نقراً لطيفاً وتارةً جعجعةً خشنة ومرّةً طقطقةً على عجل وطوراً انيناً عميقاً على مهل واحياناً بين بين وهكذا الى ان تتم جميع الاجراس واجباتها على اختلاف نغماتها فيعاد الامر على اسلوبٍ آخر بان يؤلف بين نغمة جرسين الى ما شا كل ذلك مما يضيق المقام عن وصفهِ. ولكل ما ذكر اصول وشروط لا يعرفها سوى اربابها فان الدقات معدودة وقبل نهاية كل فصل يضعف الصوت ويتماوت ثم ينتفض فجآءةً بقرعةٍ عنيفة هي الاخيرة

اما اهل البلاد فاكثرهم من الهنود الخلّص واول ما يستغربهُ الناظر اليهم نتوء الصدغين وتباعد العينين من غير ميَل وبلوغهم الثمانين قبل ان يطرّ شاربهم فهم في هذا على الزيّ الانكليزي من قبيل الشارب فقط. وقد صَعُبَ عليَّ ان آلَف ذلك منهم كما صعب عليَّ ان اعتاد منظر قبّعتهم. غير اني لا احسب لهم فضلاً في شكل القبعة ولا في شكل البنطلون لانهم اخذوا هذه الحسنة في زيهم عن الاسپانيول. اما البنطلون فانهُ اضيق من قفّاز الپاريزيات فتراهم فيهِ على حدّ قول عنترة « والساق منها مثل ساق نعامةٍ » او مثل ساق الإوَزّة المنتوفة. واما القبعة فانها ذاهبةٌ في العنان كبرج أفّيل او عمود ڤندُوم وعليها نقوش وكتابات اكثر من مسلة كليوپترا ولها من حولها اطار او رواق مستدير اوسع ظلاً من قبة نجران وكلما اختال لابسها في مشيهِ وهزّ رأسهُ تحسب الارض قد ماجت والسمآء انخفضت من جانب وارتفعت من الجانب الآخر

وكلما اتسعت ثروة الواحد منهم زاد في زخرفة ملبوسهِ فبنطلون ذوي اليسر يكون على الغالب ثلاثة الوان كالراية الفرنسوية وعلى جانبيهِ سلسلتان

من الحديد متينتان وهما بطول البنطلون و بعرض ٧ سنتيمترات فما زاد وهما تقومان مقام الازرار لان هذا البنطلون لضيقهِ لا يُلبَس كغيرهِ ولكن لابد ان تكون كل واحدة من ساقيهِ مشقوقة من الجانب الوحشي من فوق الى اسفل ثم تُضمّ احدى حاشيتيها الى الاخرى بواسطة السلسلة ولابسهُ يسمى « كابالّيرُو ». ويصعب عليهِ المشي على الارض لان لحذآئهِ مهمازاً نادر المثال قطرهُ نحو ١٥ سنتيمتراً فيضطر حاملهُ ان يخطو الخطوات القليلة التي لا بد منها متنقلاً على اصابع رجليهِ كانهُ الحجل او كانهُ ماشٍ على بيض . وهو قلما ينزع عنهُ سلاحهُ ولا يُرَى في منطقتهِ اقلّ من مسدَّسين وخنجر مع قطع النظر عن الاحدب البتار الذي الى جنبهِ وبندقية موزير التي في عاتقهِ

والمكسيكيون على جانب من اللطف والمؤانسة فقد اتفق لي غير مرة ان امرّ باحد المشاة . . . او الخيالة فاراهُ على عدم معرفتهِ بي يكشف القبّعة ويحني رأسهُ مسلماً فاردّ التحية باحسن منها ظاناً ان السلام لهذا الفقير. ثم تنبهت الى ان التحيات والتسليمات كانت للدرابزين او زعرور الباب فانها كلها وقعت لي بجانب حائط احدى الكنائس ومن واجبات عابر الطريق ان يسلّم متى واجه الجدار ولو كانت الكنيسة على مسافة نصف كيلومتر منهُ. وليس هذا الدليل الوحيد على تقوى الامة فان عربة الاسقف متى مرّت ينطرح الناس على جانبي الطريق الى الارض وهي عادةٌ قديمة كنت اظن ان الناس ابطلوها من عهد بطرس الاكبر

ومن غريب عوائدهم ان الشاب اذا اراد الاقتران بفتاة لا يخطبها الى ذويها ولكن يكون ابتدآء المسئلة على حد ما قال الشاعر « نظرةٌ فابتسامةٌ

فسلامٌ » ومتى ارخى الليل سدولهُ يقف تحت نافذة الحبيبة ويناجيها باشواقهِ ومذ ذاك يصير المغرب والنافذة موعد التقآء الحبيبين فيقضيان الساعات الى ما بعد منتصف الليالي على هذه الصورة غير مباليين بالبرد ولا المطر و بعد ان تمرّ عليهما عدة اشهر فاما ان يقترنا او ان يفترقا الى ما شآء الله . وهذا ليس مما يقع في الندور ولكنها عادة جارية في البلاد فانك لا تكاد تمرّ في احد الشوارع بعد المغيب الا ترى في كل نافذةٍ فتاةً وتحت كل نافذةٍ عاشقاً وربما وقفت اثنتان او ثلاث في نافذة واحدة وكان الخطّاب كذلك وهم كما ذكرنا في الشارع العام . وهذه الحسنة ايضاً اقتبسها المكسيكان عن اخوانهم الاسپنيول وهي كثيرة الشيوع في اسپانيا حتى ان ناپوليون الثالث خطب الكنتس دي مونتيخو من النافذة وهي التي صارت بعد ذلك الامبراطورة اوجيني . وٱغناطيوس لويولا ادلت اليهِ خطيبتهُ حبلاً فصعد اليها الى النافذة ثم انتهى امرهما بالتقاطع وعلى اثر ذلك انخرط في سلك الجندية ثم انشأ شركة الجزويت المشهورة

ج * ن

اسئلة واجوبتها

القاهرة ـ عثرت في الجزء الخامس من مجاني الادب (ص ١٩١) على قصيدة عنوانها « زهرية عنتر بن شداد » ولدى مطالعتها وجدت فيها الفاظاً كثيرة لم افهم معناها وذلك مثل قولهِ منها

والجوُّ بين مقلّسٍ ومغلّسٍ بتغزُّلٍ وتبرُّقٍ وتسلسلِ
والطير بين مفرّدٍ ومغرّدٍ ومرنّمٍ ومرخّمٍ ومكلكلِ